نحن الشباب بين النقص والكمال

للأستاذ صلاح الدين الشريف

موضوع دقيق ، ولكنه إحساس قوى يخامرنا نحن الشباب ، فيبعثنا على تعرف شخصياتنا واتجاهاتنا ومصايرنا ، وهو احساس له نبضاته وله إيقاعه ، فلا مهرب من أن ننفض عنا أمواجه ونردد صداه ، ولو شعرنا فى مبدء الأمر التكره له والاشفاق منه ، وأغرانا إيثار السلامة على أن ننجو بأنفسنا من حرجه ونصم آذاننا عن هواتفه وصداه ! .

ولكنه " الواقع " يحلو له أن يفرض أبدا سلطانه علينا ، فيعكر بمنطقه صفو أحلامنا وهدوء صمتنا ، ويدفعنا دفعا إلى المكاشفة والتساؤل والتأمل، لنؤكد فى أنفسنا صفة الأحياء أو لنذيقها معنى الحياة .

صور ونماذج : تكلمت فى موضوع سابق عن الشباب بوجه عام ، وكان الحديث ينقصه لون من التحليل أبقيته لقصة أخرى . والآن أجد فى ذهنى صورا ثلاثة ، هى بجملتها تطوى فى ظلالها وألوانها جماعات الشباب عندنا ، ولعلها تكشف لنا فيه عن نواحى الضعف والقوة أو نواحى النقص والكمال كما تغرينا على ملاحظة " موضوعاتها " و " أوضاعها " بالتحليل والفهم ثم الاستنتاج والحكم . وهى صور نجد فى بعضها من الظلال ما يؤلم ونرى فيها من الألوان ما قد يسوء ، حتى لتنطق مشاهدها بنصيب من النقص فى الفن ، وتحكى عيوبها معنى التهاون والغفلة فى التظليل والتلوين . ولكننا نلمح فى بعضها الآخر اجتماع الجمال والتناسق ونحس فيها سلامة الأوضاع وقوة الموضوع .

ولكل من هذه الحالات علته وسببه ، ولكل من هذه الفنون مدرسته وفنانوه ... ..

حياتنا العصرية المعقدة : قبل أن أعرض نماذج هذه الصور ، أو أتحدث عن هذه الألوان ، أود أن ألم فى نظرة عابرة ، بحياتنا التى نحياها اليوم ، أعنى بمشاكل مجتمعنا التى تطالع الشباب وتتطلب منه العمل والكفاح ، وتوحى إليه أن يكون من وقائعها مثله وأن يتصور من أطيافها هدفه ومداه .

أبتدأت طفولة هذا الجيل من الشباب فى أعقاب العقد الثانى من القرن ، ولو أنه استدبر الأيام ورجع بناظريه خطوة إلى الوراء ، لعرف أن أقرانه من شباب ذلك العهد قد صاغوا لأنفسهم الهدف، ورسموا لعواطفهم الغاية ، وتقدموا اليها فى اقدام لا يستطيعه غير الشباب.

كانت مشكلة الأمس سياسية محضة ، ولم تكن الحياة الاجتماعية للوطن قد تشعبت بعد ، أو تفتحت للشباب عن ألوان من التبعات الخطيرة ، أو المشاكل التى وجدت مع الأيام ولم يكن لذلك الجيل عهد بها من قبل .

تلك كانت مشكلة الأمس . أما مشاكل اليوم ، فهى مجموعة من نواحى التعمير والتجديد والاصلاح ، ودنيا حافلة بالمسئوليات والواجبات والغايات ، تتصادم خلالها الماديات والنظريات والتوجيهات .

وكل منها تصور للشباب طريقا للحياة والواجب ليأخذ النفس به ، ويستهديه فى هذه الدنيا التى لا تعرف غير الزحام والأقدام .

هى إذن أهداف بعضها حائرة وغايات بعضها متباينة ، ومثل مضطربة ، جمعت بين بعض سمات الطابع المصرى ، وبين الجو الغربى الدخيل، ثم انجمت صورا من النظر القديم والتفكير الاجتماعى العتيق .

يواجهه شبابنا إذن دنيا حافلة بالكفاح والعراك ، وأسلحته مزيج من الحديث المتطرف والقديم المتغالى ، وروحه حائرة تستهدى أهدافها الجديدة خلال طريق باهت النور غامض المعالم . . . .

ولكن الوطن يطالب بأعداد الشباب ليدرك واجباته، ويتحمل تبعاته فى عصر الدستور والاستقلال وهاهى ذى وزارة الشؤون الاجتماعية تنفخ فى البوق وتدعو المجتمع المصرى الى عصر جديد ، عصر التفتح لحياة الرجولة والكرامة والخلق والانتاج . . .

فهل فى مقدور شبابنا أن ينهض ، والى أى حد يستطيع أن يواجه هـذه الحياة ، وأى خصائص الشخصية القوية المنتجة تعوزه ، وأى ألوان التوجيه ينسجم وطبعه ، ليصابر اليأس ، ويستمد حيوية السن ، ويتابع قدما حياة الجهاد .

عرض وتحليل : نبدأ بالنموذج الأول ، بالطابع الذى أعتقد فى غير تجن أنه يمثل " النشاز " فى كل شيء ينقصه التكمل من كل شيء . وهو طابع نحسبه وقفا على بعض البيوت " الارستقراطية " المترفة التى تخرج لنا غالبا تلك الصور البراقة اللماعة، التى ينعتها البعض فى فخر كاذب بطبقة " أولاد الذوات " . غير أننا إذا تغلغلنا فى بعض بيوت الطبقة الوسطى ، التى هيأت لها ظروفها الاجتماعية العارضة أن تقلد فى اندفاع وطفرة بيوت الوجاهه والارستقراطية والمودرنزم وجدنا بعضها يشارك البيت الأول فى طريقة إعداده أبناؤه للحياة .

ينشأ الشاب " الارستقراطى " أو " ابن الذوات غالبا " فى جو لين هين ، يغلب عليه التدليل المفرط ، وتحوطه العناية ، يتسابق الجميع إلى ارضائه وتملق أهوائه . ويستنشق فى هذا الجو الناعم معانى " الفضائل " الرخوة ، فيستمرئ النعومة ، ويستطيب كل ماهو رقيق حالم فاتر . . . إذا طلب الأغانى فلا يشجيه غير الحالم الولهان الذى يشيع فى نفسه الميوعة والتفجع والذلة ، وإذا طلب المحافل وأحب غشيان المجتمعات ، فضل مدفوعا بسعار من غرائزه المطلقة السراح ، مجتمعات اللهو ومحافل المجون المرذول .

ومن المؤلم حقا أن تلازمهم روح التدليل هذه من وقت أن يطالعوا الحياة اطفالا إلى أن يتدرجوا فى مراحل العمر، حتى تبدأ مرحلة المراهقة، مرحلة الخطورة والحرج فى أعمار الشباب.

إذا رأيت هذا الشباب وقد انعدمت فى نفسه حوافز الكفاح، وماتت فيه سليقة الاعتماد على النفس، إذا رأيته كارها لحياة المسئوليات مشفقا من دورة النضال، عاجزا عن مصابرة الأيام فى تقلبها وتنكرها، مؤثرا سكرة الحياة الوادعة المطمئنة، إذا رأيته على حاله تلك، فلا تتح عليه باللائمة، ولا تشدد عليه النكير، وعبثا تحمله وحده تبعة ماتردى فيه.

نعم! لست أقسو فى القول أو أجاوز به حدود المعقول إذا أهبت قائلا: لاتتعاموا عن المتهم الأول والمتهمة الأولى فى هذه المأساة! لا تتجاهلوا فى حملتكم على الأبناء الفاشلين ذلك الأب المستسلم اللين الذى أهـدر كرامة الأبوة، وامتهن حزم الرجولة، فى محاولته خداع نفسه بأن هذا الموقف السابي منه؛ لابد مجنبة ثورة الأفكار الناشئة، مؤمنه وثبة العقائد الشابة المتهورة، التى لم تخلق فى زعمه إلا لجيل غير جيله، ولون من الحياة يغاير تماما ماعرف من ألوان الحياة!

ولا تتعاموا عن المتهمة الأولى التى أفسدت بلينها وتدليلها وتسترها روح الطفولة. وماشت أهواءها الضالة، فأفلت منها كما أفلت من رب البيت قياد الأبناء بعد أن بلغوا مدارج الشباب.

ثم سلوا هذه «الفلوس» المتدفقة فى غير حساب، لماذا يغمر بها البيت الأرستقراطى أبناءه فى غير تعقل ولا حكمة، فيدنيهم شيطانها من أحلامهم الجامحة ويسهل عليهم سبل الضلال... بل سلوا هذه السيارات الأنيقة المتهاودة، لماذا يغدقها الآباء على الأبناء وهم فى سن التحصيل والطلب تجرى بهم غادية رائحة.

كم من ثروات أضاعها بعض هذا الشباب فى غير ما عائدة عليه أو على وطنه اللهم الى الوبال والخسران وكم من أخلاق أفسدها هذا الجو المسمم، وأنضج عن طريقها عناصر المأساة لتعصف بهذه البيوت وتطوح ببنائها. وكم من آباء وأمهات أمتهم الحسرة وهدهم الكمد بعد أن فتحوا أعينهم على مدى الهوة التى حفروها بتهاونهم تحت أرجل الأبناء فندموا ولم ينفعهم ندم ولا أجداهم استدراك لما كان، فقد فات الأوان.

إن هذه الظلال الباهته وهذه الألوان المضطربة ليست من طبيعة الشاب المصرى البريئة من كل نقص وعيب، بل ليست تنقل عن فقر فى استعداداته أو عيب أصيل فى ملكاته ولعمرى كيف يصح هذا القياس وقد تحدثت بذكاء الشاب المصرى الأمم، وسجل هو لنفسه فخر النصر فى كثير من معاهد العلم وبيوت التربية فى دنيا الغرب ولكن نقص التوجيه وسوء الإعداد، وذلك الدلال الذى لا يتمتع به أبناء الأرستقراطية الغربية التى عرفتها أوطانها منتجة عاملة تقتعد مقاعد التوجيه وتمتلى مراكز السلطة فى كفاية موفقة

ملؤها الرجولة والحزم ولعل شاهد على ذلك أن هذا الشاب المدلل أثبت فى كثير من الفرص التى تصدمه فيها حقائق العيش وتضطره دنيا الكفاح الى أن يحيا بكد ساعده ، كيف يشق لنفسه طريقا يصل به الى القمة فى دنيا المال والأعمال هو التوجيه إذن لا أكثر ولا أقل

طابع يائس متشائم : ويطالعنا هنا صنف حائر يائس، يحس الضغط والكبت فى كل شىء ، ويتلح الفشل فى كل أمر ، ويمضى فى حياته محتفظا بوتيرة مقصورة عليه ، ووضع لاصق به، ولكنى أحس ضيق المكان فأرجىء حديثى عنه فى فرصة أخرى ، إنقباض ملازم فى أسارير الوجه ، وفتور وذبول فى رنوة العين ، ومسحة من السوداء فى كثير مما ينزع إليه الفكر ! ولا حاضر ولا مستقبل عنده، بل يوم آلى متكرر لا أكثر ولا أقل .

من هم هؤلاء ؟ وأى معجزة ظالمة قاهرة قضت على حكم السن، وسلبتهم روح البشاشة والتفاؤل والعزم، وهم بعد فى أول مراحل العمر ؟ ! انهم أيضا ضحية الآباء ، ضحية التوجيه الخاطئ، والالزام المشؤم، والتحكم فى الميول تحكم الأنانية والدكتاتورية . وهاكم السر .

يتوهم بعض الآباء أن أبناءهم ملك حلال لهم ، وأن من حقهم التصرف المطلق فيهم وتوجيه مواهبهم وملكاتهم الوجهة التى يريدون . بل من الآباء من يعمل على خنق مواهب أبنائه وإرغامهم على احتراف مهنة لا تتفق ونزعاتهم، ولا يمكن أن تجر عليهم غير الكوارث والنكبات .

وكم من عظماء فقدتهم الانسانية وفقدهم الوطن لأن آباءهم كانوا متعصبين قصار النظر يوقعونهم الى حياة ضيقة الحدود مظلمة الأفق ، لا تعود عليهم بأكثر من الرخاء المادى الوضيع الذى ينشده ويتهالك عليه سواد الناس !

وهذا العارض النفسى الذى ينتاب فريقا من الاباء، يمثل فى أجلى مظاهره، وإن تكن تحكما مشوبا بالحب والعطف والرغبة فى إسعاد الأبناء .

على أن هذا الحب الأعمى لا يمكن أن يفضى الى خير ، إذ ليست العبرة بالعواطف بل هى بتحكيم العقل والاعتماد عليه فى تفهم أخلاق الأبناء ونزعاتهم توطئة لقيادتها وتدريبها وإبلاغها حد الكمال .

على أن جانبا من اللوم يقع أيضا على تلك النظم الصورية التى وضعت للتعليم قيوده عندنا. فما دمنا نأخذ بمنطق الامتحان ونخضع مواهب الطلبة لعقلية الاختبار السنوى فى آخر العام، وهى عقلية الشحن والتكديس والأتخام، لا عقلية التوجيه والتفتيح والانماء، وما دمنا كذلك نضع فى طريق المواهب والميول قيود الدرجات ونسب القبول المئوية للأعداد فى سلك الكليات ، ونحكم بمقياسها الخداع على كفاءة الطلاب ، فلا سبيل إذن لأن ينفتح مجال النبوغ عندنا، ولا سيما إذا زاد الطين بلة ضيق أماكن التحصيل والدرس، كما تنبعث بذلك الصيحات فى كل عام .

ولا يقتصر الأمر عند التحصيل والطلب ، بل إن النكبة أعم والبلوى أشد، إذ لا نراعى أيضا فى الاختيار لوظائف الدولة قاعدة " الرجل الأنسب للعمل الأنسب "، بل إن الأمر لا زالت تعوزه الضوابط والحدود .

يجب أن نفهمَ أن الاستبداد والتوجيه الخاطئ يخنقان نبوغ الملكات، كما أن الاختيار السيء للمهن والحرف يقضيان على روح الانتاج فى عقول الشباب .

ينبغى أن يشفق الآباء على أبنائهم ، بمعنى أن يحاولوا أن يجعلوا من حبهم لهم وسيلة لفهم جوهر شخصيتهم وحقيقة مواهبهم وملكاتهم ، وفى هذا إسعاد لهم وللوطن القائم على سواعدهم وعقولهم .

شباب الكفاح والمسؤولية : ولكنى أود قبل أن أختم حديثى أن أوجه كلمة هادئة الى شباب الكفاح والعمل، شباب الجد والأمل، فهو الدم الجديد الذى يصبو إليه الوطن. فشبابنا اليوم ما زال سليم الفطرة طاهر الطباع قوى الاستعداد ، كثيرا ما واتته الفرص القومية والاجتماعية فهب مضطلعا بالجهد كله ، نافضا عنه ضعفه وتقاعده مخترقا الحواجز والقيود معلنا إرادته للجميع .

نعم ! لقد سجل له التاريخ المعاصر أكثر من مرة أنه يعرف كيف يتحرك وكيف يعمل بل كيف يموت .

سجل له نفحات من روح القوة التى تنشدها مصر فيه ، وتنشد فيها الزاد الذى يجلو عن روحه صدأ الأيام وخمول الاستخذاء والأنين . . . .

إن روح القوة هذه هى التى يجب أن نرعاها ونذود عنها ونتسامى بها لنكافح فى ضوئها منزالق الأخلاق ورذائل العادات والأزواق والميول . . . .

ولا يمكن أن تنهض هذه الروح الا عن طريق مثل أعلى ملموس ، أو فكرة مثالية يعتنقها الشباب ويبشر بها دعاتها فى البيوت والمجتمعات وتساند اليها كل الجهود .

ولعمرى أى سناد ينهض عليه هذا المثل أقوم من أخلاق تطوع له التضحية وتفتح أمامه مغاليق الحياة وتهدف به دائما الى شاطئ النور . . . .

انه التوجيه الرشيد اذن فى البيت والمدرسة والجامعة وحقل الحياة الاجتماعية ؛ وانها الاخلاق المنظمة التى تحدد الأهداف ويستهدى بها الشباب .

ما أحوجنا الى أن ندعو الشباب مخلصين الى تقديس الفضائل القائمة على القوة، فضائل العظمة والكبرياء والأنفة والشمم واحتقار الجبن والجبناء !!

فهى الشعار الأول الذى طالما سجله التاريخ لمصر والمصريين !!

صلاح الدين الشريف